

تاريخ القبول: 2025/04/26

تاريخ الإرسال: 2025/02/27

تاريخ النشر: 2025/04/30

التداولية وتحسين الدرس البلاغي التراثي جهود عبد القاهر الجرجاني أنموذجاً

Pragmatics and the Modernization of Traditional Rhetorical Lessons The Efforts of Abdul Qahir al- Jurjani as a Model

د. أبو العلاء إسحاق

جامعة تامنغست (الجزائر)، khaledtam2017@gmail.com

المخلص:

حاول كثير من الباحثين اللغويين العرب المعاصرين استقراء جهود عبد القاهر الجرجاني، وخاصة نظرية النظم التي اكتمل تأسيسها على يده، وتجاوزوا التأصيل للنظرية والتأسيس لها، ثم تتبع تطبيقاتها في الدراسات العربية التراثية والحديثة، إلى استجلاء تمظهراتها في الدراسات اللسانية واللغوية الحديثة؛ وانطلاقاً من كون الأبحاث في مجالات التداولية قد انفتحت على حقول معرفية متنوعة، فقد دفع ذلك بعض الدارسين العرب اللغويين المعاصرين إلى محاولة عقد مقارنات بين نظرية النظم العربية التراثية والمقاربة التداولية الغربية الحديثة للوقوف عند نقاط التلاقي بينهما.

سنحاول عن طريق آليات الوصف والتحليل وإجراءات المقارنة استقصاء من خلال الدراسات العربية اللغوية الحديثة نقاط التجاور والتمايز بين نظرية النظم الجرجانية التراثية المتجددة والمقاربة التداولية الحديثة بأسسها الغربية وخلفياتها

المرتبطة باللسانيات وما تفرع عنها، محاولين الإجابة عن السؤال التالي: ما حقيقة العلاقة -إن وجدت- بين نظرية النظم التراثية والمقاربة التداولية الغربية الحديثة؟
الكلمات المفتاحية: نظرية النظم، عبد القاهر الجرجاني، التداولية، التلقي العربي، التحيين.

Abstract:

Many contemporary Arab linguistic researchers have attempted to extrapolate the efforts of Abdul Qaher Al-Jurjani, especially the theory of systems, which was fully established by him. They have gone beyond establishing and establishing the theory, then tracing its applications in traditional and modern Arab studies, to clarifying its manifestations in modern linguistic and linguistic studies.

Given that research in the field of pragmatics has opened up to diverse fields of knowledge, this has prompted some contemporary Arab linguists to attempt to draw comparisons between the traditional Arabic systems theory and the modern Western pragmatic approach, in order to identify the points of convergence between them.

Through the mechanisms of description, analysis, and comparative procedures, we will attempt to investigate, through modern Arabic linguistic studies, the points of convergence and distinction between the renewed traditional Jurjani systems theory and the modern communicative approach with its Western foundations and its backgrounds linked to linguistics and its offshoots. We will attempt to answer the following question: What is the true relationship - if any - between the traditional systems theory and the modern Western communicative approach?

Keywords: Systems theory, Abdul Qaher Al-Jurjani, pragmatics, Arabic reception, updating.

المؤلف المرسل: أبو العلاء إسحاق، KHALEDTAM2017@GMAIL.COM

01- مقدمة

تركزت جهود بعض الباحثين المعاصرين في خطاب التلقي على ربط أسس نظرية النظم وجهود عبد القاهر الجرجاني بالدراسات اللسانية والبلاغية والأسلوبية الغربية الحديثة من خلال قراءة أبرز أسس النظرية في ضوء بحوث نظريات التلقي والمقاربات الأسلوبية والنحو الوظيفي ونحو النص، ولسانيات النص والحجاج وغيرها من الفروع اللغوية والنقدية دون إغفال محاولاتهم ربط النظرية بالمقاربة التداولية من خلال عقد المقارنات وتتبع أوجه التلاقي أو تجاور وأوجه التمايز، وستكون هذه الدراسات المقارنة محور ورقتنا البحثية.

سنحاول عن طريق آليات الوصف والتحليل وإجراءات المقارنة استقصاء نقاط التجاور ونقاط التمايز بين نظرية النظم الجرجانية التراثية العربية المتجددة والمقاربة التداولية الحديثة بأسسها الغربية وخلفياتها المرتبطة باللسانيات، خاصة بعد انفتاح الدراسات الأدبية واللغوية على كثير من المناهج الحديثة ومناهج ما بعد الحداثة، وهي تنتقل بين الأقطاب الثلاثة (المرسل والنص والمتلقي) التي أقرتها النظرية التخاطبية؛ وستكون مجموعة من النماذج المختارة من الدراسات العربية اللغوية المعاصرة التي حرص أصحابها على تتبع أوجه تلاقي نظرية النظم الجرجانية التراثية مع إجراءات المقاربة التداولية أو بعضاً من مرتكزاتها الإجرائية محور دراستنا التطبيقية معتمدين آلية قراءة القراءة أو نقد النقد، محاولين الإجابة عن

السؤال التالي: ما حقيقة العلاقة -إن وجدت- بين نظرية النظم العربية التراثية والمقاربة التداولية الغربية الحديثة؟

03- مفهوم نظرية النظم:

مما لا شك فيه أن عبد القاهر الجرجاني استفاد من جهود سابقه في وضعه لنظرية واضحة المعالم مكتملة الأركان، وهو ما جعلها قبلة لكثير من الدارسين طيلة عصور من الزمن، بل ولا يزال البحث فيها مستمرا، يحل محتواها تارة، ويقارن بينها وبين ما توصل إليه الدرس اللساني الحديث تارة أخرى.

لعل متلقي كتاب (دلائل الإعجاز) يستوقفه ما أورده عبد القاهر في مبحثه المعنون بسبب تأليف دلائل الإعجاز، إذ يستقي هذا المتلقي أهمية الفصاحة والبلاغة في تفضيل بعض الكلام على بعضه، وتفضيل بعض النظم على غيره، وصولا إلى تحقق الإعجاز الذي هو القصد من الكتاب في جوهره، يقول: "وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم، والتأليف التأليف، والنسج النسج والصياغة الصياغة، ثم يعظم الفضل وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم تتفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضا، ويتقدم منه الشيء الشيء [...] حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في عجز"¹؛ ليكون المغزى من البلاغة والفصاحة ومعاني النحو تحقق التميز والتفرد والإعجاز.

ومما يميز النظم عند الجرجاني عن سابقه هو أثر لمستة النحوية التي عرف بها الجرجاني النظرية، حيث تظهر نزعة النحوية جليا من خلال تعاريفه

السابقة للنظم التي يقول فيها: "النظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"²، وقال عنه أيضا (أي النظم): "ليس شيئا غير توحي معاني النحو"³، وهو ما ذهب إليه في أكثر من موضع في كتابه (دلائل الإعجاز)، الذي يعد المكان الذي أفرغ فيه عبد القاهر كل جهوده وأسس فيه لنظرية النظم، بل ويردّ في كثير من فصوله على خصومه من المعتزلة الذين خالفهم في الكثير من القضايا.

وكان من بين هاته القضايا قضية اللفظ والمعنى، التي يرى فيها الجرجاني أن لا معنى للألفاظ ما لم يضم بعضها إلى بعض، فيقول: "إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها من فوائد"⁴، وقال في موضع آخر: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك"⁵؛ إذن فترتيب الألفاظ عند الجرجاني يأتي بعد ترتيب المعاني في النفس.

والمتتبع لكتاب (دلائل الإعجاز) يرى أن الجرجاني أفرد فصولا يشرح فيها نظرية النظم التي يرى أنها السر الذي يكمن وراء إعجاز القرآن الكريم، ويطبقها على أكثر النصوص شرحا وتعليلًا، يرد بها على بعض ما وجده في الساحة اللغوية آنذاك من آراء أنصار الصرفة، ويحسم بنظريته الخلاف في قضية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد قبله والمعاصرين له.

04- مفهوم المقاربة التداولية:

يحيلنا التساؤل عن مفهوم التداولية إلى تتبع الإشكالية التي يطرحها تعريب أو ترجمة المصطلح من مظاهره الأجنبية (Pragmatics) في الإنجليزية أو

(Pragmatique) في الفرنسية، إذ تتباين آراء الدارسين في اختيار المصطلح الدال عنه في اللغة العربية ترجمة وتعريباً، ولعل أكثر المصطلحات المقترحة هي: (التداولية- والبرجماتية (البراجماتية) أو البرغماتية- والمقامية- والمجال التداولي- والتداول- والفوائد- والنفعية العلمية) وغيرها من المصطلحات التي تتأرجح بين تعريب المصطلح الأجنبي وترجمته، فلا يختلف بذلك مصطلح التداولية في قضية تحديد المصطلح العربي المعادل لنظيره الأجنبي عن غيرها من المصطلحات اللغوية والبلاغية والنقدية.

وقد نكتفي باستعراض بعض الآراء حول هذه الإشكالية، يختار عبد الملك مرتاض في بحثه (تداولية اللغة بين الدلالية والسياق) وهو يعالج فيه مفهوم التداولية (البراقماتية) مصطلح (التداول) بديلاً عن مصطلح (التداولية)، فيرى أن المصطلح الثاني " قد اصطنع في العربية النقدية المعاصرة على أنه (تداولية)، في حين أنا نشك في أنه كذلك بهذه الصيغة التي ورد عليها في أصل الاستعمال الغربي، لأن صيغة هذا الاستعمال -(Pragmatics , Pragmatique)- لا تدل على وجود بقاء النزعة المعرفية (علمية أو فلسفية أو أدبية)، والتي يطلق عليها النحاة العرب، (الباء الصناعية)؛ فالأجانب يصطنعون صيغة أخرى لما يقابل هذه الباء (أو اللاحقة الثنائية على الأصح (ية): (Pragmatism / Pragmatisme) ؛ فكيف نترجم، نحن العرب، مفهومين اثنين في أصليهما بصيغة عربية واحدة؟ ... ولذلك نقترح أن نطلق على مقابل الأول (تداول) أي تداول اللغة (دون لاحقة: ية)، وعلى الآخر المنصرف إلى النزعة المذهبية (التداولية)"⁶ ؛ فبعد الملك مرتاض يرتضي مصطلح (تداول) ويرفض مصطلح (التداولية).

ويعلن الباحث قصي العتابي مترجم كتاب (Pragmatics) لمؤلفه جورج يول (George Yule) عن أسباب اختياره مصطلح (التداولية) في مقدمة المترجم، يقول: " أود أن أنبه القارئ الكريم إلى أنني فضلت ترجمة المصطلح (Pragmatics) إلى (التداولية) بدلا من (البرجماتية أو (المقامية)-، وذلك لأن (التداولية) في رأيي هي المكافئ الأنسب، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الـ Pragmatics هي بالأساس دراسة اللغة من منظور (تداولها) بين مستعملها"⁷؛ ويتجلى لنا أن المترجم لم يقدم أسبابا تسند اختياره، وإن كان -حسب رأينا سار على خطى غيره من المترجمين للمصطلح الأجنبي.

ويلجأ الباحث محمود عكاشة إلى التعريب بدل الترجمة مخالفا سابقيه ومعهما مجموعة من الباحثين عرب معاصرين معتمدا مصطلح (البرجماتية) معادلا للمصطلح الأجنبي، يقول في دوافع اختياره هذا النهج دون سواه: " ولم أعدل عن هذه التسمية الأصلية (Pragmatics) إلى ترجمتها؛ لأنها أدق في التعبير عن دلالتها في بيئتها بيد أن بعض الباحثين العرب اختاروا ترجمة (التداولية) ، والتداول يعنى بالتفاعل بين طرفي الحوار، والبرجماتية تعند بعملية التلقي لا بنية الخطاب وتزويده (إعداده في النفس) وقائله وقصده، فالمتلقي مرجع معرفة القصد وليس القائل، والتداول لا يحمل هذا المفهوم، وآخرون استعاروا لها تسميات تراثية ذات أبعاد إسلامية مثل (علم المقاصد) أو (المقاصدية) و(علم الذرائع) أو (الذرائعية)، ولهذه الاختيارات أثر سلبي في دلالة المفهوم الإسلامي الذي يحمل قيمة دينية وثقافية من تراث الأمة، وليست هذه التسميات العربية إلا قناعا عربيا يستر مطالب الفلسفة البرجماتية النفعية في الدراسة اللسانية"⁸؛ ويدعم حججه بانقفاء دقة التعبير في هذه الترجمات من جهة ، وعدم قدرتها على أن تتحد في مصطلح واحد يغني عن هذه التسميات المتعددة.

والاختلاف بين الدارسين العرب المعاصرين في إيجاد مصطلح يحمل دلالة المصطلح الأجنبي (Pragmatics) ويعبر عنه بدقة تستند إلى قواعد اللغة العربية الحاضنة لهذا المصطلح الأجنبي، نراه إثراء للبحث العلمي يعبر عن رؤى مختلفة، كل رؤية تنتظر إلى مصطلح (Pragmatics) من زاوية معينة تحمل في طياتها مبررات الاختيار، وتنتج اختلافا في تحديد مفهوم (التداولية) باختلاف المرجعيات وزوايا النظر سابقة الذكر.

تباينت الآراء حول تحديد مفهوم (التداولية)، ليظهر المصطلح للوهلة الأولى مفهوما مستعصيا عن التحديد والضبط -حاله كحال كثير من المصطلحات اللسانية والنقدية-، يقول خليفة بوجادي في كتابه (في اللسانيات التداولية) في تعليقه صعوبة ضبط مفهوم مصطلح (التداولية) مستعينا بأقوال أبرز أعلامها: "لا يعد البحث أول شاك في صعوبة الإلمام بتعريف شامل ودقيق للتداولية، لسعة مجالها في المنظومة الفكرية الحديثة، ولعل أول أسباب ذلك، أن مفهومها تتقاذفه مصادر معرفية عديدة، فعدت ملتقى لمصادر أفكار وتأملات مختلفة يصعب حصرها، ولا يكاد يستقر في أحد منها، وربما كان ذلك لنشأتها غير المستقرة أيضا ... فصارت تسمية غامضة دوما هذا، إضافة إلى أنها تتداخل مع علوم، مما جعل مجالها ثريا وواسعا وعسيرا"⁹؛ عن التحديد والضبط المفهومي.

وبعد استعراض الباحث أسباب عدم استقرار المصطلح العربي على صيغة واحدة في نقله من مظانه الغربية تعريبا وترجمة، يؤكد عدم استقرار مفهومها، ذلك أن مدونة تعريفه "كثيفة وغنية برؤى تعكس التنوع المعرفي الذي نشأ فيه الفكر التداولي، وبعد تفحص العديد منها -والتي نسجل بداية عدم تضاربها فيما بينها،

بقدر ما تبعث على اتساع المفهوم، وتتوعد التصورات، وتعدد المشارب، إلى جانب إمكانية الأخذ على بعضها - يظهر أننا أمام تداوليات¹⁰.

يقترح جميل حمدواي مفهوما للمقاربة التداولية يركز على وظيفتها أو موضوعها في كتابه (التداوليات وتحليل الخطاب)، يقول: "من المعلوم أن المقاربة التداولية هي تلك المنهجية التي تدرس الجانب الوظيفي والتداولي والسياسي في النص أو الخطاب، وتدرس مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب، مع التركيز على البعد الحجاجي والإقناعي وأفعال الكلام داخل النص، بمعنى أن التداوليات هي ذلك (العلم الذي يدرس المعنى، مع التركيز على العلاقة بين العلامات ومستعملها والسياق، أكثر من اهتمامه بالمرجع أو الحقيقة أو التركيب)*؛ وتهتم التداوليات أيضا بالمرجع والإحالة التي تم إقصاؤها من فرديناند دو سوسير الذي حصر العلامة في الدال والمدلول، ومن ثم ترفض المقاربة التداولية في مجال الأدب والنقد التركيز على البنيات الشكلية والجمالية، دون مساءلة أفعال الكلام والمقصدية الوظيفية"¹¹؛ كما يؤكد الباحث اهتمام التداولية بدراسة اللغة العادية واللغوية شعرا ورواية ودراما وثنائية الأنا والآخر حضورا في الخطاب، والسياق التواصلية والسردي الإقناعي والسياق التواصلية والحجاج والوظيفيتين المقامية والمقالية وغيرها من المباحث.

ويخلص الباحث باديس لهويميل بعد استعراضه لبعض تعريفات الدارسين أجانب وعربا إلى أن "التداولية إذن في أبسط تعريفاتها: دراسة للغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، تقوم على مراعاة كل ما يحيط بعملية التخاطب، للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب، بحسب قصد صاحبه، وتبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التواصلية الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب والسامع له"¹²؛ ويحول صلاح فضل في تعريفه التداولية ربطها

بالبلاغة القديمة، إذ " تصبح التداولية العلم الذي يعنى بالعلاقة بين نصية النص وعناصر الموقف التواصلية المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص ... ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)"¹³.

وسيدفعنا قول صلاح فضل إلى تتبع طبيعة العلاقة بين التداولية الغربية الحديثة ونظرية النظم العربية التراثية، للوقوف عند حدود التلاقي والتمايز من خلال ما قدمه بعض الباحثين العرب المعاصرين.

05- تحيين نظرية النظم في ضوء المقاربة التداولية

افتراض كثير من الدارسين العرب المعاصرين أن أبرز مبادئ نظرية النظم التي اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني يمكن قراءتها على ضوء البحوث اللغوية واللسانية الغربية الحديثة، ومن هذه الدراسات المقارنة من ركز على علاقة نظرية النظم بالمقاربة التداولية ومن أبرز هؤلاء الباحثين: الباحثة الجزائرية نفيسة طيب في بحثها (البنية الحجاجية في النثر العباسي تناول تداولي لكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني)، إذ لا يخفى بروز تناول التداولي بصورة جلية في عنوان البحث يعلن اعتماد الباحثة المقاربة التداولية الغربية الحديثة في قراءة مدونة تراثية لعبد القاهر الجرجاني.

بينت الباحثة في مقدمة بحثها الأكاديمي سبب اختيارها مؤلف عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) أنموذجاً لدراستها، بعد أن أكدت مشروعيتها تناول القضايا التراثية بمناهج حديثة تحقيقاً للإثراء من جهة وتجديد القراءات من جهة أخرى، إذ "

كانت النصوص التراثية وما تزال محل اهتمام الباحثين، فقد تناولها الدارسون من عدة زوايا غير أنها بقيت موضوعا مثيرا للبحث خاصة مع ما توفره لنا المعارف الحديثة من مناهج وآليات تلقت مختلف هذه المناهج رغم اختلافها التي تصل حد التعارض في رغبتها في كشف أغوار النص للوصول إلى أعماقه متجاوزة بذلك ظاهره؛ يعد كتاب (دلائل الإعجاز) من الكتب التي شغلت كثير من الباحثين، حيث تعددت الزوايا التي طرق منها، لكن رغم ذلك ما يزال يخفي الكثير من الكنوز التي تستوجب البحث عنها¹⁴.

سعت الباحثة -من خلال ما صرحت به- إلى النظر إلى الكتاب من زاوية جديدة أساسها مبدأ الحجاج بعده ركيزة أساس في النصوص الموجهة بما تحويه من مقصدية وجدل ونقاش، وأقرت اختيارها في بحثها المنهج التداولي الذي اختاره بعض الدارسين العرب المحدثين قبلها في دراسة موضوع الحجاج وربطه بنماذج من الشعر القديم والبلاغة المعاصرة وسور من القرآن الكريم، وقالت في مقدمتها " اعتمدنا لإنجاز هذا البحث على المنجز التداولي، الذي يعد آخر المناهج النقدية، فهو يأخذ بالاعتبار كل أركان العملية التواصلية مما ساعدنا على الإحاطة بمكونات الخطاب المختلفة"¹⁵؛ وقد تستوقفنا إشارة الباحثة إلى أن المنهج التداولي آخر المناهج النقدية دون أن تدلل لحكمها، والذي يتجلى لنا تعميميا مطلقا لا يستند إلى أدلة أو دراسة تاريخية، إذ يكفي الاستناد إلى البدايات الأولى للتداولية ليتبين لنا أن كثير من مناهج النقدية لما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية متأخرة عنها ظهورا في الدراسات الغربية.

استهلت الباحثة دراستها بمدخل خصصته للإشارة إلى الإعجاز القرآني من خلال ما أورد المتناولين له من العلماء العرب القدماء من أمثال الزمخشري والسيوطي وأبي هلال العسكري وبقلائي والجاحظ وابن قتيبة وبقلائي والخطابي

والرمانى وعبد القاهر الجرجاني، الذي ختمت حديثها عن الإعجاز بقولها : " امتاز الجرجاني عن أنداده بتجاوز البحث عن السؤال: هل القرآن معجز أم لا؟ بل بحث ممكن ذلك الإعجاز، وألف في ذلك الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز والأسرار، ونحن سنعمد إلى دراسة (الدلائل) التي ضمنها الأدلة والحجج التي تدل على أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه، وسنبحث في البنية الحجاجية التي اعتمدها للإقناع برأيه معتمدين على مقارنة النص تداوليا مستخدمين لذلك ما جاء في نظرية الحجاج حسب رواد هذا الاتجاه¹⁶؛ وأتبعته بإطلالة مقتضبة على المنهج التداولي.

وبعد تتبعها في الفصل الأول لنظرية الحجاج في التراثين الغربي والعربي ثم عند الغربيين المعاصرين، ووقوفها أمام مفهوم الإستراتيجية الحجاجية ومجالها ووظيفتها ومراحلها وهدفها، خصصت الفصل الثاني لخصائص النص الحجاجي عند الجرجاني، بدءا من مكونات النص الحجاجي (المرسل والمتلقي والحجج والنتيجة، ثم خصائص النص الحجاجي وشروطه نجاحه، وجعلت الفصل الأخير لدراسة البنية الحجاجية في دلائل الإعجاز.

ومن أهم ما لفت انتباهنا في دراسة الباحثة هو محاولتها تحيين نظرية النظم الجرجانية بربطها ببحث تداولي غربي حديث، وافترضت لذلك فرضية مفادها أن عبد القاهر الجرجاني قد وضع كتابه (دلائل الإعجاز) الذي يؤسس لنظرية النظم " ليرد فيه عن القائلين بالصرفة، وكذا المغالين في مسألة اللفظ، وعلى القائلين في مسألة إعجاز القرآن الكريم، حيث أن هذه المسألة شغلت بال العديد من العلماء قبله وفي زمانه وبعده، يحاول الجرجاني في الدلائل إقناع المتلقي بأن القرآن معجز بنظمه، وقدم الحجج المدعمة لرأيه والمعارضة لغيره. إذن يتكون النص الحجاجي عند الجرجاني من مرسل وهو صاحب الكتاب (الجرجاني)، متلق و[هم المعاصرون]

له و[المتأخرون عنه] من علماء وطلاب علم وغيرهم، نتيجة وهي أن القرآن معجز بنظمه، مستعينا في ذلك بعدد من الحجج¹⁷.

وبعد تحليلها لكثير من أقوال الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) لإثبات توفره على بنية حجاجية تتطابق مع ما اشترطه بعض الباحثين الغربيين في الحجاج، تخلص إلى نتيجة تؤكد من خلالها قدرة الجرجاني على التأثير في متلقي نصوصه وخاصة ما أورده في قضية النظم تحقيقا للإقناع، ذلك أن نجاح الحجاج مشروط بتمكن " المتكلم من التأثير في المتلقي، والذي يتجلى في تبني المتلقي أفكار المتكلم، فقد قضى الجرجاني على إشكالية اللفظ والمعنى، ورسخ فكرة النظم حيث أخذ به جل من جاء بعده"¹⁸؛ ليتبين لنا أن الباحثة من خلال ما بذلته من جهد واضح لإثبات استطاعة المقاربة التداولية في شقها الحجاجي من استجلاء البنية الحجاجية لنص تراثي بإجراءاتها المعاصرة.

وبالانتقال إلى دراسة الباحثة الجزائرية المعاصرة حاملة ثوبايت (قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني)، يظهر لنا إعلان الباحثة تبنيها المقاربة التداولية لتحيين دراسة نص تراثي، إذ " شكل التراث العربي متنفسا للباحثين المعاصرين، وذلك من منطلق شغف التنقيب عن قراءة جديدة تتماشى مع الطروحات الفكرية المعاصرة؛ فتراهم حبا في ذلك يتسلحون بآليات جديدة من أجل الولوج إلى أسرار النص التراثي ضمن فعل قرائي أقرب ما يكون إلى مغامرة استكشافية لتراث مشفر وثرى"¹⁹؛ ولا تخفي الباحثة اعتمادها تقصي نظرية النظم بالاعتماد على " الطرح المعرفي والتطبيقي لنظرية النظم، والتي جعلها مدار حديثه عن إعجاز القرآن ودليله، كذلك طبيعة تحليلاته للنماذج الخطابية، والتي جعلها مدار توضيحه لنظرية النظم ضمن فصول الكتاب، والتي تظهر لنا في المواضيع التي

طرقها داخل فصول الكتاب، مستعينا بخاصية الذوق؛ هذه الخاصية التي رأينا أن اشتغالها في المدونة يظهر بما يعرف في الدراسات المعاصرة بالمعرفة الخلفية أو المعرفة الموسوعية، والتي تظهر من خلال الكفاءة التداولية²⁰.

استطاع الجرجاني حسب الباحثة بقصديته أن يحقق المقصدية في مخاطبة متلقي كتابه فنظر إلى الجانب البلاغي، معتنيا بالتركيب والمعنى من زاوية تداولية من خلال الأنماط الخطابية ضمن نظرية النظم، دفعت الباحث لتستنتج أن " أن كتاب دلائل الإعجاز هو كتاب في تحليل الخطاب، ونحضر بذلك الآراء التي علقت كتاب دلائل الإعجاز على علم المعاني فقط [...] إن طبيعة تحليلات الجرجاني، وكذا العناصر التي اهتم بها في تحليل النماذج المدروسة تحليلنا إلى القول بتداخل تحليلاته مع تحليلات التداوليين المعاصرين²¹؛ كما ركزت الباحث على اهتمام الجرجاني بالعدول في الخطاب وتحديد العدول التوسعي الانتقالي وأهميته في حضور المعنى الثاني أو القول المضمر، أو معنى المعنى بالاعتماد على -حسب الباحثة على نظرة تفكيكية تداولية.

وتعيد الباحثة في خاتمة دراستها -التي هدفت إلى تحيين كتاب دلائل الإعجاز مع الدرس التداولي المعاصر- تأكيد أن نظم عند عبد القاهر الجرجاني " هو نظم دينامي تفاعلي ووظيفي، وذلك ما سعى إلى تبيانها من خلال طريقة التحليل التي ارتضاها لكل الخطابات التي حللها، فكتاب دلائل الإعجاز هو كتاب في تحليل الخطاب [...] وما دام هذا الكتاب كتابا في تحليل الخطاب فإن مواطن الاشتغال عليه قد تكون ثرية أمام الباحث في مجال تحليل الخطاب، فربما تلوح في الأفق خطوات منهجية لتحليله، وتكون سراجا لطالب العلم، يهتدي به من أجل تحيين هذا الكتاب التراثي تماشيا مع مناهج التحليل المعاصرة²²؛ ولا يخفى ما بذلته الباحثة من

جهد في ربط نظرية النظم بالمقاربة التداولية، ولكن قد لا يخفى ما في ذلك التحيين من أحكام مطلقة وعامة قد تصلح لنص الجرجاني ولنصوص غيره من العلماء القدماء هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تستند الباحثة -حسب رأينا إلى مراجع أجنبية مؤسسة للمقاربة التداولية، بل اكتفت بالكتب المترجمة عنهم والمراجع العربية وهو ما يجعل نتائج بحثها -رغم ما بذل من جهد وما في البحث من وجاهة وجدة- تفتقد إلى الدقة بالارتباط بالتأسيس الغربي للتداولية.

خاتمة:

من خلال ما سبق عرضه في ورقة البحثية يمكننا أن نخلص إلى ما يلي:
تفرعت جهود الباحثين المعاصرين في خطابات تلقي نظرية النظم وجهود عبد القاهر الجرجاني إلى خطابات ثلاثة: أولها تعريفية بالنظرية تأسيسي لها تأصلي يتتبع جذورها التاريخية، والثاني تطبيقي وممارسة لأبرز أصول النظرية، والآخر تحيين لنظرية النظم في ضوء الدراسات اللسانية والبلاغية والأسلوبية الغربية الحديثة. شكلت المقاربة التداولية إحدى البحوث التي مثلت الخطاب الثالث من تلقي نظرية النظم التراثية، سعى أصحابها -بعض الباحثين العرب المعاصرين- إلى الاستعانة بإجراءات التداولية -أو بعضها منها- في قراءة نظرية النظم بتطبيق منهج معاصر على مدونة تراثية.

افتراض كثير من الدارسين العرب المعاصرين أن كثير من مبادئ نظرية النظم التي اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني يمكن قراءتها على ضوء البحوث اللغوية واللسانية الغربية الحديثة، ومن هذه الدراسات المقارنة من ركز على علاقة نظرية النظم بالمقاربة التداولية، ومن أبرز هؤلاء الباحثين: الباحثة الجزائرية نفيسة طيب في بحثها (البنية الحجاجية في النثر العباسي تناول تداولي لكتاب دلائل

الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني)، وسعت الباحثة إلى النظر إلى الكتاب من زاوية جديدة أساسها مبدأ الحجاج بعده ركيزة أساس في النصوص الموجهة بما تحويه من مقصدية وجدل ونقاش.

تبنت الباحثة الجزائرية المعاصرة حاملة ثقبايث في بحثها (قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني) المقاربة التداولية لتحيين دراسة نص ثرائي؛ وكان تركيزها على الأنماط الخطابية والجانب البلاغي.

لا يخفى ما بذلته الباحثتان من جهد، ولكن قد لا يخفى ما في ذلك التحيين من أحكام مطلقة وعامة قد تصلح لنص الجرجاني ولنصوص غيره من العلماء القدماء هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تستند الباحثتان -حسب رأينا- إلى مراجع أجنبية مؤسسة للمقاربة التداولية، بل اكتفينا بالكتب المترجمة عنهم والمراجع العربية.

المراجع والإحالات:

- ¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص:283
- ² نفسه، ص283.
- ³ نفسه، ص 391.
- ⁴ نفسه، ص287.
- ⁵ نفسه، ص48.
- ⁶ عبد الملك مرتاض: تداولية اللغة بين الدلالية والسياق، مجلة اللسانيات، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، المجلد 10، العدد 02، ص 66-67.
- ⁷ جورج يول: التداولية، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010، ص 15.
- ⁸ محمود عاكشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013، ص5-6.

⁹ خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص63.

¹⁰ نفسه، ص63.

* - الكلام بين قوسين إحالة إلى: . A.J Greimas.J. Courtés : Sémiotique . Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. Hachette Université, Paris, 1979, Sémiologie, pp : 335-339.

¹¹ نفسه، ص63.

* - الكلام بين قوسين إحالة إلى: . A.J Greimas.J. Courtés : Sémiotique . Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. Hachette Université, Paris, 1979, Sémiologie, pp : 335-339.

¹² باديس لهويل: التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد السابع، 2011، ص159.

¹³ صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، طب، أغسطس 1992، ص21.

¹⁴ نفيسة طيب: البنية الحجاجية في النثر العباسي تناول تداولي لكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مخطوط رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي أكلي محند الحاج، البويرة، الجزائر، 2012/2011، ص6.

¹⁵ نفسه، ص8.

¹⁶ نفسه، ص17.

¹⁷ نفسه، ص131.

¹⁸ نفسه، ص131.

¹⁹ حامدة ثقبابث: قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مخطوط رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012، ص1.

²⁰ نفسه، ص03.

²¹ نفسه، ص155-156.

²² نفسه، ص158.